كذَّبَنى ابنُ آدمَ

٢٢ يقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى :

«كَذَّبنى ابنُ آدمَ ، ولم يكُنْ لَهُ ذَلِكَ.

وتَكْذيبُه إيَّاىَ قَوْلُه : لَنْ يُعيدَنى كما بَدَأَنى

وليسَ أَوَّلَ الخَلْقِ بأهْوَنَ علىَّ مِنْ إعَادتِه». (١)

لقد كان الشكُّ عند الذين عاصروا الدعوة المحمدية فى مسألة البعث من الموت ، وكل كلامهم يؤدى إلى ذلك ، بل إنهم تعجَّبوا من حدوث هذا الأمر.

﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) ﴾ (المؤمنون)

فهم لم يتعقَّلوا أو يتدبَّروا ليؤمنوا ، ولكنهم قالوا مثل مَنْ سبقوهم من الأوَّلين الذين كذَّبوا بالبعث ، وقالوا : كيف نُبعث بعد أن نصير تراباً وعظاماً؟!

وهم يستشهدون بأن آباءهم وأجدادهم وُعِدوا بذلك من قبل ولم يحدث.

وقد حكى تعالى قولهم فقال :

﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ (٨٣) ﴾

(المؤمنون)

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه (٤٩٧٤) ، والنسائى فى سننه (٤/ ١١٢) من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة، وقد أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/ ٣١٧) ضمن صحيفة همام بن منبه ، و(٢/ ٣٥٠) من طريق ابن لهيعة . والحديث صحيح.

وهذا جَهل منهم، لأنهم ربما ظنُّوا أن معنى البعث أن يموتوا ، ثم يعودوا إلى الحياة الدنيا مرة أخرى ، مع أن الله أخبرهم عن طريق رُسله أن البعث سيكون يوم القيامة ، أى بعد أن تنتهى الدنيا كلها ، ويموت الناس جميعاً ، فهذا جهل وسَفْسَطة فى الجدل.

فالبعث بعد الموت شىء لم يَأتِ أوانه بعد ، لأن البعث لا يكون إلا بعد انقضاء الدنيا ، وموت كل الخلائق.

فالكفار هم الذين أخطأوا التوقيت ، لأنهم ظنُّوا أنهم يموتون ، ثم يُبعثون فى الحياة الدنيا ، وهذا جهل وخطأ فى الفهم.

ولذلك فإنهم قالوا :

﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحيا وَمَا يُهلِكنا إِلاَّ الدَّهْرُ[1] وَما لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٢٤) ﴾ (الجاثية)

---

(١) الدهر : الزمان الطويل ومدة الحياة الدنيا . (لسان العرب ـ مادة : دهر). وقال ابن كثير فى تفسير الآية (٤/ ١٥٠): «يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركى العرب فى إنكار المعاد ﴿ مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحيَا ... (٢٤) ﴾ (الجاثية) أى : ما ثَمَّ إلا هذه الدار يموت قوم ، ويعيش آخرون ، وما ثَمَّ معاد ولا قيامة . وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد ، وتقوله الفلاسفة والإلهيون منهم ، وهم ينكرون البداءة والرجعة ، وتقوله الفلاسفة الدهرية الدورية المنكرون للصانع المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شىء إلى ما كان عليه ، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول ، وكذَّبوا المنقول ».

بل إنهم ضربوا لله الأمثال ، فقال تعالى:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ[1] (٧٨) ﴾

(يس)

هذا الكلام لا يقتصر على أُبيّ بن خلف الذى أنكر البعث ، وهَشَّم العظام أمام رسول الله ﷺ ، ولكن هذا يُقال لكل مُنكرٍ للبعث .

والذى ينكر هذه القضية لو يتذكَّر خِلْقته ونشأته لوجد الدليل على البعث ، لماذا ؟

لأن الله خلقه من عدم ، وبدأ خلقه على غير مثال، ثم يعيده بعد الموت، وإعادته أهون عليه من ابتدائه . بالنظر إلى مقاييس اعتقاد مَنْ يظن أن إعادة الشيء أسهل من ابتدائه.

فالله له مطلق القدرة فى خَلْقه ، وهو الغالب فى مُلْكه ، وهو الحكيم فى فِعْله وتقديره.

إن الذى يُعيد إنما يعيد من موجود ، أما الذى بدأ فإنما يبدأ من معدوم ، فالأهونُ هو الإعادة ، أما الابتداء فهو ابتداء من معدوم ، وكلاهما من قدرة الحق سبحانه وتعالى.

هذا الرجل الكافر حينما ألقى السؤال على أشباهه من الكافرين ، وقال :

(١) الرميم : العظام البالية . والرميم : الخَلَق البالى من كل شيء (لسان العرب - مادة : رمم).

﴿ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) ﴾ (يس)

لم يجيبوه ، أو قالوا له : لا أحد يستطيع إحياءها.

أمَّا الحق سبحانه فإنه يردُّ على زعمهم عدم إحياء الموتى بقوله سبحانه :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾ (يس)

فهو سبحانه أنشأها (١) من عدم ، فلئن يُنشِئها من وجود فهو أهون.

الفلاسفة المسلمون أرادوا أن يُوضِّحوا هذا المعنى فقالوا :

حينما أراد الله أن يخلق من العدم ، فخلق السماء ولم تكن موجودة ، فقال : اخرجي يا سماء. فخرجت.

وخلق الأرض ولم تكن موجودة ، فقال : اخرجي يا أرض فخرجت.

فقادريته سبحانه هي التي أمرتْ ، ومقدورية السماء والأرض هي التي انفعلتْ ، فما الذي انتهى من هذين العنصرين ، هل قادريته انتهت؟ أمر مقدورية الأشياء هي التي انتهت ؟

الاثنان موجودان : مقدورية الأشياء ، وقادرية الفاعل.

وقوله تعالى :

﴿ أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ... (٧٩) ﴾ (يس)

---

(١) أنشأ الشيء : أوجده وأحدثه وخلقه. أنشأ الله الخلق : أي ابتدأ خلقهم. وقوله تعالى ﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الأُخْرَىٰ (٤٧) ﴾ (النجم) أي : البعثة (لسان العرب ـ مادة : نشأ).

يدلُّ هذا على أنه سبحانه سيُنشئها مرة ثانية.

فالكافرون كانوا يستبعدون فكرة البعث والإحياء بعد الموت ، وكانوا يقولون :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ[1] بَعِيدٌ ۝٣ ﴾ (ق)

هؤلاء الناس لماذا يستصعبون إعادة الخلق مرة أخرى يوم القيامة؟

ما هو وجه بُعْده ؟

الفلاسفة شرحوا هذه القضية وقالوا :

هبْ أن إنساناً مات ودُفن فى الأرض ، وتحلَّل جسمه إلى عناصر، واختلطتْ بالأرض ، ثم غُرِسَتْ شجرة فى هذا المكان ستتغذى من عناصره ، ثم تنبت ثمرة.

فالذى أكل هذه الثمرة سيتكون عنده فى جسمه جزئيات من هذه الثمرة المأخوذة من عناصر الميت المدفون فى هذا المكان ، فحين يبعث الله الناس ، يبعث هذا المأخوذ من الأول ، أم من الثانى ؟

(١) رجع يرجع رجْعًا ورُجوعاً : انصرف . ويقول تعالى : ﴿ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ ﴾ (الطارق) قيل : إنه على رجْع الماء إلى الإحليل (ذكر الرجل) وقيل : إلى الصلب، وقيل : إلى صُلْب الرجل وتربية المرأة. وقيل : على إعادته حياً بعد موته وبلاّه ، لأنه المبدئ المعيد سبحانه وتعالى. وقيل: على بَعْث الإنسان يوم القيامة ، وهذا يقويه ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ ﴾ (الطارق) أى: قادر على بعْثه يوم القيامة. والله سبحانه أعلم بما أراد. (لسان العرب - مادة رجع).

وهذا هو معنى قولهم :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(السجدة)

أى : أنهم تساءلوا : هل بعد الموت والدَّفْن وتحلُّل الجثمان إلى عناصر تمتزج بعناصر الأرض ، أبعد كل ذلك بَعْث ونشور ؟

لقد تساءل المشركون : أبعد أن نذوبَ فى الأرض ، وتتفكك عناصرنا الأولية نعود ثانية ، ونُبعث من جديد؟

فهم يعتقدون أن التشخُّصات مادة فقط ، مع أن التشخصات معانٍ .

فَهَبْ أن واحداً سميناً وزنُه مائة كيلو جرام ، وأصابه مرض ، فحدث له هُزَال ، وأخذ وزنُه فى التناقص حتى صار وزنه خمسين كيلو جرامًا فقط ، فأين ذهب الخمسون كيلو الأخرى ؟

نزلتْ فى الأرض ، واختلطت بعناصرها ، ثم جاء طبيب ماهر واهتدى إلى علاج هذا الرجل ، وزال ما به من مرض ، وأوصاه الطبيب بأنْ يُغذِّى نفسه حتى يستردَّ صحته ، فبدأ يأكل ويتغذى ، وبعد مدة عاد وزنه كما كان قبل المرض .

فهذا الإنسان هل تغيرتْ شخصيته ، أم أنه كما هو ؟ كما هو لم يتغير .

وهل الجزئيات التى دخلتْ فيه بالغذاء هى نفسها التى خرجتْ منه؟

بالطبع لا .

إذن : الإنسان ومُشخصاته جزئيات مختلفة التكوين ، فساعة تكون الجزئيات مضبوطة تظهر شخصيتُك .

ولذلك قال الحق ـ سبحانه وتعالى ـ رَدّاً عليهم عندما قالوا :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ ﴾ (ق)

قال سبحانه :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ﴾ (ق)

أى : أن عملية الإعادة ليست بعيدة على الله ؛ لأن هذا مُكوَّن مثلاً من ٢٠٪ أوكسجين ، وكذا فى المائة فوسفور ، وكذا حديد ، وكذا صوديوم .. الخ .

عندما نجمع هذه العناصر بهذه النِّسَب يكون كما هو .

فهذه الإعادة تحتاج إلى علم بتكوين العناصر ، وقدرة على الإبراز .

أما العلم ففى قوله تعالى :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ ... ﴿٤﴾ ﴾ (ق)

فهذا كان فيه كذا جرام من عنصر كذا ، وكذا جرام من عنصر كذا .. إلخ

والقدرة أنه سبحانه أخبرنا بأننا ما دُمْنا آمنا بأنه قادر أن يخلق من عدم ، والكل يشهد بذلك .

فالذى خلق من لا شىء ، وعنده أنقاص أو بقايا شىء ، فإرجاع هذا الشىء أهون من خَلْقه من العدم .

قال تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ... ﴿٢٧﴾ ﴾ (الروم)

وعملية أهون هذه لا تناسب مقام الألوهية ؛ لأن الأمور عند الله ليس فيها أَهْون وأصعب ، ولكن هذا تقريب للمعنى فى عُرْف البشر ، فهو سبحانه خلقكم من لا شىء ، وأصبحتم بشراً ، وصار لكم مُخلَّفات موجودة فى الكون .

فَأَنْ يعيدكم إلى الحياة مرة أخرى من هذه البقايا فهو أسهل من أن يخلقكم من عدم ، كما حدث فى النشأة الأولى ، وهذا بِعُرْفكم أنتم .

فإذا كان الله لم يُعجِزه أن يخلقكم من عدم ، فحين يعيدكم من مواد موجودة ، هل يصعب ذلك عليه ؟!

فمثلاً أنا أحضرت الأسمنت ، وأحضرت الحجارة والرمل والماء .. إلخ : وبنيت منها حجرة أو بيتًا ، هذا سهل ميسور .

لكن لو أنا سأبنى ابتداء ، كيف أبنى بدون هذه المواد . أما عند وجود المواد فالبناء يكون سهلاً ميسوراً .

إذن : أيهما أهون : الخلق من موجود ، أم الخلق من غير موجود؟

الخلق من موجود أهون .

وكلمة «أهون» أفعل تفضيل ، فأنت تقول : هذا هيِّن ، وهذا أهون . ومعنى هيِّن : أى يسير سَهْل لا يُتعِب ، وليس فيه لُغُوب [1] ، وأهون مبالغة فى السهولة ، فهذا سهل ، وهذا أسهل .

وهل الله يُقال فى عمله : سهل وأسهل ؟

لا ، إنما سهل وأسهل يُقال للقُوَى المحدودة التى تعالج الأشياء ، لكن الله لا يعالج الأشياء ، ولكنه يخلق بكلمة «كن» . ولكنه سبحانه يُعطينا مثلاً مما نفعله نحن ، فيُبيِّن لنا أن الواحد منا لو صنع صنعة ثم هدمها ، ثم أراد أن يُعيدها كما كانت من جديد ، فأيُّهما أسهل : أنْ تُعيدها ؟ أم أنْ تبدأها ؟

لا شكَّ أن الإعادة أسهل فى عُرْفنا نحن . فالإعادة أسهل فى عُرْفنا نحن ، لكن بالنسبة لله ليس هناك هيِّن وأهون .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

(العنكبوت)

والحق سبحانه يفجؤهم بالسؤال :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ [2] ﴿٣٤﴾ ﴾ (يونس)

---

(١) اللغوب: التعب والإعياء . لَغَب يلغب : أعيا أشد الإعياء . يقول تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ (ق){لسان العرب ـ مادة : لغب}.

(٢) أفك يأفك : كذب وافترى باطلاً . {لسان العرب - مادة : أفك} قال ابن كثير فى تفسيره (٢ / ٤١٧) ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾(يونس) . أى : فكيف تصرفون عن طريق الرشد إلى الباطل» .

فالحق سبحانه يأمر رسوله ﷺ أن يسألهم :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ..... ﴿٣٤﴾ ﴾ (يونس)

ومعنى أن الله يسأل القوم هذا السؤال أنه لا بُدَّ أن تكون الإجابة كما أرادها هو سبحانه .

وإن قال قائل : وكيف يأمنُهم على مِثْل هذا الجواب ، ألم يكن من الجائز أن ينسبوا هذا إلى غير الله؟

نقول : إن هذا السؤال لا يُطرح إلا وطارحه يعلم أن له إجابة واحدة . فلن يجد المسئول إجابة إلا أن يقول : إن الذى يفعل ذلك هو الله سبحانه ، ولا يمكن أن يقولوا : إن الصنم يفعل ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنهم هم الذين صنعوا الأصنام ، ولا قدرة لها على مثل هذا الفعل .

فالإجابة معلومة سلفًا : إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده هو القادر على ذلك ، وهذا يوضح أن الباطل لجلج [١] والحق أبلج [٢] ، وللحق صَوْلَة [٣] .

---

(١) اللجلجة : ثِقَل اللسان ، ونقص الكلام ، وأن لا يخرج بعضه فى أثر بعض . وقال الليث : اللجلجة أن يتكلم الرجل بلسان غير بيِّن . {لسان العرب ـ مادة : لجج} .

(٢) أبلج الحق : ظهر ووضح . والبلوج : الإشراق والوضوح . {لسان العرب ـ مادة : بلج} .

(٣) صال عليه: وثب . والمصاولة : المواثبة ..{اللسان ـ مادة : صول} والمواثبة والمصاولة هو معنى القذف بالحق على الباطل . يقول تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنبياء] .

فأنت ساعةَ تنطق بكلمة الحق فى أمر ما ، تجدها قد فعلت فعلها فيمَنْ هو على الباطل ، ويأخذ وقتًا طويلاً ، إلى أن يجد كلامًا يرد به ما قلته ، بل يحدث له انبهار واندهاش ، وتنقطع حجته [1] .

ولذلك لم يقل الحق سبحانه هنا مثلما قال من قبل:

﴿ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (٣١) ﴾ (يونس)

بل قال سبحانه:

﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) ﴾ (يونس)

وجاء بها الحق سبحانه هكذا ؛ لأنهم حينما سُئلوا هذا السؤال بهرهم الحقُّ ، وغلب ألسنتهم وخواطرهم ، فلم يستطيعوا قَوْل أىِّ شىء .

ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد وكيل النيابة يضيِّق الخناق على المتهم بأسئلة متعددة ، إلى أن يُوجِّه له سؤالاً ينبهر المتهم من فَرْط دقَّته ، وليس له إلا إجابة واحدة ، تتأبى طباعه ألاّ يجيب عنه ، فيجيب المتهم معترفًا .

وحين يُسأل السؤال : مَنْ يبدأ الخلق ثم يعيده ؟

فاللسان بفطرية تكوينه المؤمنة يريد أن يتكلم ، لكنه لا يملك إرادة الكلام ، فيُبيِّن الحق سبحانه للنبى ﷺ أن يجيب نيابة عن الأبعاض المؤمنة .

---

(١) وهذا مثل المحاورة التى دارت بين إبراهيم عليه السلام والنمروذ بن كنعان ، يقول تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨) ﴾ [البقرة].

فيقول سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ..... ﴿٣٤﴾ ﴾ (يونس)

وهو بذلك يؤكد الصيغة ، ويكفى أن يقول محمد ﷺ هذا القول مُبلِّغًا عن ربه ، وينال هذا القول شرف العِنْدية :

﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (يونس)

وقد وقف الكافرون عند نقطة البعث واستبعدوها ، فأراد الله أن يُبيِّن لنا هذه المسألة ؛ لأنها تتمة التمسُّك بالمنهج ، وكأنه يقول لنا : إياكم أن تظنُّوا أنكم أخذتم الحياة ، وأفلتم بها وتمتعْتُم ، ثم ينتهى الأمر ؟

لا ، إن هناك بَعْثًا وحسابًا ، لذلك قال سبحانه :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وعد اللهِ حَقًّا .... ﴿٤﴾ ﴾ (يونس)

فإن قال قائل . كيف يكون ذلك ؟

يأتى القول الحق :

﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ....﴿٤﴾ ﴾ (يونس)

فالذى قَدَر على أن يخلق من عدم ، أيعجزُ أنْ يُعيد من موجود؟

إنه الحق القائل :

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾

(مريم)

فإذا شاء أن يُعيدكم ، فلا تتساءلوا : كيف ؟

لأن ذراتكم موجودة .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَفَعَيِينَا (١) بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ (٢) مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ (ق)

هكذا يستدل الحق سبحانه بالخلق الأول على إمكان الخلق الثانى ، وهو الإعادة ، فإن كنتم تتعجبون من أنكم تعودون بعد أن أوجد الحق أجزاءكم وذراتكم ومواصفاتكم ، فانظروا إلى الخَلْق الأول ، فقد خلقكم من لا شىء .

أفيعجز أن يُعيدكم من شىء ؟

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ.....﴿١٥﴾ ﴾ (ق)

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴿٥﴾ ﴾

(الرعد)

وهذا من تلبيس الشيطان ، فهو قد أقسم فقال :

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ (٣) لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(الأعراف)

---

(١) عَيَّ بالأمر عيّاً وعَيىً ، وهو عَيِيٌّ : عجز عنه ولم يُطِقْ إحكامه . عيَّ عن الأمر : عجز عن النهوض به . [اللسان ـ مادة : عيا] .

(٢) اللَّبْس واللَّبَس : اختلاط الأمر . لَبَس عليه الأمر يلبسه فالتبس : إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته . والتبس عليه الأمر : اختلط واشتبه . [لسان العرب ـ مادة : لبس].

(٣) لأقعدن : لأتربصنَّ بهم على صراطك المستقيم لأصرفهم عنه . وعن سبرة بن أبى فاكه قال : سمعت رسول الله ﷺ قال : «إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك ؟ قال : فعصاه وأسلم . وقعد له بطريق الهجرة فقال :=

فالذى بين اليد هو ما كان إلى الأمام ، ومن خلفهم أى: من الوراء . وعن أيْمانهم أى : من جهة اليمين ، وعن شمائلهم أى : من جهة اليسار .

والشىء الذى أمام العالم كله ، ونسير إليه جميعًا هو «الدار الآخرة» .

وحين يأتى الشيطان من الأمام فهو يُشكّكهم فى الآخرة ، ويُشكّكهم فى البَعْث ، ويحاول أن يجعل الإنسان غير مُقْبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله .

فيجعلهم الشيطان يَشُكُّون فى وجود دار أخرى ، سيُجازَى فيها المحسنُ بإحسانه ، والمسئُ بإساءته .

وقد حدث ذلك ، ووجدنا مَنْ يقول القرآن بلسان حاله .

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(الصافات)

ولذلك يعرض الحق سبحانه قضية البعث عَرْضًا لا يجعل للشيطان مَنْفذًا

= أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول ، فعصاه وهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد وهو جهد النفس والمال ، فقال : أتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال . قال : فعصاه وجاهد » قال رسول الله ﷺ : «فمن فعل ذلك منهم كان حقًا على الله أن يُدخله الجنة ، وإن قتل كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة ، وإنْ وقَصتْه دابته كان حقًا على الله أن يدخله الجنة » أخرجه أحمد فى مسنده (٣ / ٤٨٣) ، والنسائى فى سننه (٦ / ٢١) وابن حبان (ص٣٨٥ موارد)كلهم من طريق هاشم ابن القاسم شيخ الإمام أحمد بهذا الإسناد . وأشار إليه ابن جرير الطبرى فى تفسيره (٨ / ١٣٤) .

فيها ، فيوضح لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خَلْقنا أولاً ، لذلك لن يعجز عن إعادتنا ، والإعادة بالتأكيد أَهْوَنُ من البداية ؛ لأنه سيُعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من عدم .

إنه سبحانه عندما يُبيِّن للناس أن الإعادة أَهْون من البداية ، فهو يخاطبهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره .

ويضرب لهم الحق سبحانه مثلاً يؤكد لهم قضية البعث ، فيقول :

﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) ﴾ (يس)

فانظر إلى الأرض الجدباء المقفرة (١) الميتة بعد أن نزل عليها المطر دبَّتْ فيها الحياة ، وأخرجت النبات والثمر .

والأرض نفسها نعمة ؛ لأن عليها مَقَرَّنا وغُدُوَّنا ورَوَاحنا ، وسكوننا وحركتنا ، حتى لو كانت صحراء جرداء ، فما بالك لو مَسَّها الله بشيء من النبات ، فتنبت الخضرة والزروع والثمار .

فالأرض نفسها آية ، وإحياؤها على مراتب :

---

(١) القَفْر والقَفْرة : الخلاء من الأرض . وجمعه : قفار وقفور . وقيل : القفر : مفازة لا نبات بها ولا ماء . وقال الليث : القفر المكان الخلاء من الناس . لسان العرب ـ مادة : قفر .

- فإما أنْ يكون بإنبات نباتات لا تُغنى فى القوت مثل الحشائش والنجيل ، ولكنها تعطى خُضرة وشكلاً جميلاً .

- وإما أنْ يكون إحياؤها بإنبات الثمار والحبوب التى يأكلها الإنسان ، ويتغذى عليها .

فالأرض الميتة نعمة ، وإحياؤها نعمة أخرى ، وإحياؤها بالقوت والثمار نعمة ثالثة .

ويقول الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً(١) فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ(٢) وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٣) ۝٥ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ۝٧ ﴾

(الحج)

هذا أمر عيانى ، فأنت ترى الأرض هامدة ساكنة ، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزتْ .

---

(١) همود الأرض : أن لا يكون فيها حياة ولا نبْت ولا عود ولم يُصبها مطر . والهامد من الشجر : اليابس . {لسان العرب ـ مادة : همد} .

(٢) ربا الشيء يربو : زاد ونما . وربا السويق رُبوًا : صُبَّ عليه الماء فانتفخ . وقوله عز وجل فى صفة الأرض : ﴿ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ .. ۝٥ ﴾ (الحج) . معناه : عظمت وانتفخت . {لسان العرب - مادة : ربا}.

(٣) البهجة : حُسْن لون الشيء ونضارته . فالبهيج : هو كل ضرب من النبات حسن ناضر . {اللسان - مادة : بهج} .

ومعنى الاهتزاز : تحرُّك ما كنت تظنُّه ثابتًا ؛ لأن كل كائن له حركة فى ذاته ، حتى ولو كانت قطعة حديد ففى ذراتها حركة ، ولكن أنت ليس عندك المعايير التى تدرك بها هذه الحركة .

بدليل أنهم كانوا حين يعلموننا الكهرباء يأتون ببرادة الحديد ، ويضعونها فى أنبوبة زجاجية ؛ ليُثبتوا لنا أن الإنسان حين يأتى بقضيب فيه مغناطيسية ، ويُحرِّكه على قضيب آخر فى اتجاه واحد .

فالقضيب الذى لم تكُنْ فيه مغناطيسية يشحن وتصبح فيه مغناطيسية ، ويجذب برادة الحديد إذا قَرَّبْته منها .

فهذا الحديد الجامد فيه حركة بين ذراته ، ولكنك لا تراها . فالأرض الهامدة ، أى : فى رأى العين أنها ساكنة ، وبعد ذلك اهتزتْ بعد أن أنزل الله عليها الماء ، فأصبحت فيها حركة ساكنة غير مرئية .

ونحن أدركنا هذه الحركة بعد أن ربَت الأرض ، وتحرَّك زَرْعها ، فحين ينزل عليها الماء تأخذ البذور حَظَّها من الرطوبة وتكبر .

فاهتزاز الأرض يأتى من تضخُّم البذور بعد نزول الماء عليها ، فتدفع ذرات التربة التى حولها فتتحرك ، فإذا أنزل الله عليها الماء تحركت فيها الحياة ، وأنبتت زرعًا أخضر .

فالأرض عندما ينزل عليها المطر تنتفخ قشرتها ، وتطفو تلك القشرة على سطح الأرض .

والعجيب أن المطر حينما ينزل على جبل أو صحراء تجد الصحراء تخضرّ ،

فمن أين جاء هذا النبات فى الجبال ، دون أن يزرعه أحد ، أو يبذر بذوره فلاح؟

نقول : سبحان الله الذى سخر الرياح لتحمل البذور من المناطق المزروعة إلى المناطق القاحلة (١) ، فيحمل الهواء هذه البذور بقدرة الله ، حتى تهدأ الرياح ، فتنزل فى الأماكن التى شاء الله لها أن تنزل فيها .

فإذا أنزل الله عليها الماء تحركتْ فيها الحياة ، وأنبتتْ زرعًا أخضر ، يُغطِّى سفوح الجبال بالخضرة بعد نزول المطر .

فالله تعالى هو الذى يُحى هذه الأرض الميتة ، ويجعلها تهتزُّ وتموج بالحياة والخُضْرة والنماء.

وما دام الله يُحى الموتى ، وهو على كل شىء قدير ، فلا تنكروا الساعة ؛ لأن الذى أحيا الأرض قادر على إحيائكم أنتم.

والحق سبحانه يضرب المثل الحىّ على قدرته سبحانه على إحياء الموتى ، فيقول سبحانه:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ

(١) قحل الشىء : يبس ، فهو قاحل . ومنه : تقحّل الشيخ : إذا يبس جلده على عظمه من البؤس والكبر . وفى الحديث : «قحل الناس على عهد رسول الله» أى : يبسوا من شدة القحط. [اللسان مادة : قحط] .

بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ (١) وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا (٢) ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ (البقرة)

عندما تسمع كلمة «قرية» فإنها تفيد تجمُّع جماعة من الناس يسكنون فى مكان محدود ، ونفهم أن الذى مَرَّ على هذه القرية ليس من سكانها ، إنما هو قد مَرَّ عليها سياحة فى رحلة على هذه القرية الخاوية.

والمقصود أنها قرية خالية من السكان ، وقد تكون أبنيتها منصوبة ، لكن ليس فيها سكان ، والخاوى : هو الشىء الساقط على غيره ، فبعد أنْ كان العرش ، وهو السقف ، أعلى البيوت أصبح ساقطًا تحتها ، مِثْلَما نقول فى العامية : «جاب عاليها واطيها» .

وعندما يمرُّ إنسان على قرية مثل هذه ، فلا بُدَّ أن مشهدها سيكون شيئًا لافتًا للنظر .

﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ... (٢٥٩) ﴾ (البقرة)

---

(١) سنه الطعام والشراب سنهاً وتسنَّه: تغيَّر . لم يتسنه : لم يتغير بمرور السنين عليه . {لسان العرب – مادة : سنه}.

(٢) نشز الشىء : ارتفع . وأنشزت الشىء : إذا رفعته عن مكانه . ومعنى ننشزها فى التنزيل العزيز : نرفع بعضها على بعض . { اللسان – مادة : نشز} .

فكأنه يسأل عن القرية ، وعن إماتة وإحياء الناس الذين يسكنون القرية .

وساعةَ تسمع «أنَّى» ، فهى تأتى مرة بمعنى «كيف» ، ومرة تأتى بمعنى «من أين» .

والمناسب لها هنا هو أن يكون السؤال كالتالى : كيف يُحى الله هذه بعد موتها ؟

وقوله هذا يدل على أنه مؤمن . فهو لا يشك فى أن قضية الإحياء من الله ، وإنما يريد أن يعرف الكيفية ، فكأنه مؤمن بأن الله هو الذى يُحى ويُميت .

والسؤال عن الكيفية معناه التيقُّن من الحدث . والكيفية ليستْ مَناطَ إيمان ، فالله لم يَنْهنا عن التعرُّف على الكيفية ، فهو يعلم أننا نؤمن بأنه قادر على إيجاد هذا الحدَثِ .

وأضرب هنا مَثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ فمصمم الملابس عندما يقوم بتفصيل أزياء جميلة ، أنت تراها . فأنت تتيقَّن من أنه صانعها ، ولكنك تتعجب فقط من دِقَّة الصَّنْعة وتقول له : بالله كيف عملت هذه ؟

كأنك قد عشقت الصنعة . فتشوَّقْتَ إلى معرفة كيف صارت ، فما بالنا بِصَنْعة الحق تبارك وتعالى ؟

إنك تندهش وتتعجَّب لتعيش فى ظل السِّرِّ السَّائح من الخالق فى المخلوق ، وتريد أن تنعمَ بهذه النعم .

فسؤاله عن كيفية الإحياء بعد الإماتة ليس معناه أنه غير مؤمن ، بل هو عاشق ومشتاق لأن يعرف الكيفية ، ليعيش فى جو الإبداع الجمالى الذى أنشأ هذه الصَّنْعة .

ونحن نعلم أن إحياء الناس سيترتب عليه إحياء القرية ، فالإنسان هو باعث الحركة التى تَعْمُر الوجود ، والناس لهم حياة ولهم موت ، والقرية بأنقاضها وجدرانها وعروشها [1] لها حياة ، ولها موت .

وعندما سأل العبد هذا السؤال ، أراد الله أن تكون الإجابة تجربة مُعَاشةً فى ذات السائل ، فجعل الحق سبحانه الأمر والتجربة فى السائل ذاته .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ... ﴿٢٥٩﴾ ﴾ (البقرة)

وكأن الله قال له كلامًا كما كَلَّم موسى عليه السلام . أو أن العبد سمع صوتًا أو مَلَكًا . أو أن أحدًا من الموجودين رأى التجربة . المهم أن هناك سؤالاً وجوابًا .

والحقُّ سبحانه يُخبرنا بحوار دار فى هذا الشأن .

---

(١) العروش : جمع عرش . وعرش البيت : سقفه . يعنى : قد سقط بعضه على بعض ، وأصل ذلك أن تسقط السقوف ثم تسقط الحيطان عليها . ويقول تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ..﴿٤٥﴾ ﴾ (الحج) أراد : أن حيطانها قائمة ، وقد تهدمت سقوفها، فصارت فى قرارها ، وانقعرت الحيطان من قواعدها ، فتساقطت على السقوف المتهدمة قبلها . [لسان العرب - مادة : عرش] .

السؤال هو : كم لبثتَ ؟

فأجاب الرجل : لبثتُ يومًا أو بعضَ يوم .

وإجابة الرجل تعنى أنه قد تشكك ، فقد وجد اليوم قد قارب على الانتهاء ، أو انتهى بالفعل ، وذلك لأن اليوم أو بعضه هو أطول مدة يتخيل الإنسان أنه ينامها .

والنائم لا يكون عنده دِقَّة فى تقدير الزمن ، خاصة أنه لم يَرَ شيئًا قد تغيَّر فيه ليحكم بمقدار التغيُّر ، فلو كان قد حلق لحيته مثلاً ، وقام بعد ذلك ليجد لحيته قد طالتْ ، أو قد نام بشعر أسود ، وقام بعد ذلك بشعر أشيب .

فلو حدثتْ أيَّةُ تغييرات فيه لكَان قد لمسَها ، لكنه لم يجد تغيُّرًا .

ومع ذلك ، فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ أثبت له أنه صادق فى قوله :

﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .... ﴿٢٥٩﴾ ﴾ (البقرة)

وأن الله سبحانه صادق فى قوله :

﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ...﴿٢٥٩﴾ ﴾ (البقرة)

فكيف يتأتَّى الصِّدْق من الله فى مائة عام، والصدق فى يوم أو بعض يوم ؟

إننا هنا أمام طرفين ، ويكاد الأمر أن يصبح لغزًا ، ونريد أن نَحُلَّ هذا اللغز .

إن الحق سبحانه صادق ومُنزَّه ، والعبد المؤمن صادق فى حدود ما رأى من أحواله .

ونقول : إن فى القصة ما يؤيد قول العبد : ﴿ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ...﴿٢٥٩﴾﴾ (البقرة)

وفيها أيضًا ما يؤيد قول الرب سبحانه : ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ...﴿٢٥٩﴾﴾ (البقرة)

فقد كان مع الرجل حماره ، وكان معه طعامه وشرابه ، من عصير وعنب وتين .

وأراد سبحانه أن يُدلِّل على الصدق فى القضيتين معًا ، فقال :

﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ .... ﴿٢٥٩﴾﴾ (البقرة)

ونظر الرجل إلى طعامه وشرابه ، فوجدهما لم يتغيَّرا ، وهذا دليلٌ على أنه لم يمكث إلا يومًا أو بعض يوم ، وبذلك ثبت صدق الرجل .

بقيت قضية «مائة عام» ، فقال الحق سبحانه:

﴿ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ... ﴿٢٥٩﴾﴾ (البقرة)

هذا القول يدل على أن هنا شيئًا عجيبًا . وأراد الحق سبحانه أن يبين له بنظرة إلى الحمار دليلاً على صدق مرور مائة عام ، ووجد الرجل حماره ، وقد تحوّل عظامًا مبعثرة .

ولا يمكن أن يحدث ذلك فى زمن قصير ، فإن مَوْتَ الحمار أمر قد يحدث فى يوم ، لكن أن يرمَّ جسمه ، ثم ينتهى لحمه إلى رماد ، ثم تبقى العظام مبعثرة ، فتلك قضية تريد زمانًا طويلاً ، لا يتسع له إلا مائة عام .

فكأن النظر إلى الحمار هو دليلٌ على صِدْق مرور مائة عام ، والنظر إلى الطعام دليلٌ على صِدْق مرور يوم أو بعض يوم .

فالقضية إذن هى قضية عجيبة!

كيف طُوى الزمن فى مسألة الطعام ؟

وكيف بُسِط الزمن فى مسألة الحمار ؟

إنه سبحانه يُظهر لنا أنه هو القابض الباسط ، فهو الذى يقبض الزمن فى حَقِّ شىء ، ويبسط الزمن فى حَقِّ شىء آخر ، والشيئان مُتعاصران معًا .

وتلك العملية لا يمكن أن تكون إلا لقدرة ضليعة ، لا تملكها النواميس الكونية ، وإنما هى التى تملك النواميس .

وقد أراه الله العظام ، وكيف يُنشِزها ويرفعها ، فتلتحم ، ثم يكسوها لحمًا ، أى : أراه عملية الإحياء مشهديًا[1] .

وفى هذا إجابة للسؤال :

﴿ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا .. (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال السدى وغيره : تفرقت عظام حماره حوله ، يمينًا ويسارًا ، فنظر إليها ، وهى تلوح من بياضها ، فبعث الله ريحًا فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ، ثم ركب كل عظم فى موضعه ، حتى صار حمارًا قائمًا من عظام لا لحم عليها ، ثم كساها الله لحمًا وعصبًا وعروقًا وجلدًا ، وبعث الله مَلَكًا فنفخ فى منخرى الحمار فنهق بإذن الله عز وجل ، وذلك بمرأى من العزير ، فعند ذلك لما تبين له هذا كله ﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ (البقرة)

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة]

و «ننشزها » أى : نرفعها .

وقد رأى «العزير» كل عظمة فى حماره وهى تُرفع من الأرض ، وشاهد كل عظمة تركَّب مكانها ، وبعد تكوين الهيكل العظمى للحمار بدأت رحلة كسوة العظام لحمًا ، وبعد ذلك تأتى الحياة .

لقد وجد عزير إجابة فى نفسه . ووجد إجابة فى الحمار .

ومن بعد ذلك تذكَّر قريته التى خرج منها . وأراد العودة إليها ، فلما عاد إليها وجد أمرها قد تغيَّر بما يتناسب مع مرور مائة عام . وكان فى تلك القرية مولاة لهم ، أى : أَمَة فى أسرته .

وكانت هذه الأَمَة قد عَمِيت ، وأصبحت مُقْعدة ، فلما دخل وقال : أين العزير ؟ . قالت الأمة : ذهب العزير من مائة عام ، ولا ندرى أين ذهب ولم يَعُدْ .

قال : أنا العُزير .

قالت : إن للعزير علامة ، فإن كنتَ العزير فادْعُ الله أن يرد علىَّ بصرى ، وأن يُخرجنى من قُعودى هذا .

وقد كانت علامة العزير أنه مُجَاب الدعوة .

فدعا عزيرٌ الله فبرئت ، فلما برئتْ نظرتْ إليه فوجدته هو العزير ، فذهبت إلى قومها وأعلنت أن العزير قد عاد (١) .

وبعد ذلك ذهب العزير إلى ابنه ، فوجده رجلاً قد تجاوز مائة سنة ، وكان العزير لا يزال فى سن الخمسين .

ولذلك ترى الشاعر يقول مُلْغِزًا : وما ابن رأى أباه وهو فى ضعف عمره ؟

والمقصود بهذا اللغز هو العزير ، الذى أماته الله وهو فى الخمسين ، ثم أحياه الله فى عمره نفسه بعد مائة عام ، والتقى العزير بابنه .

قال الابن: كنت أسمع أن لأبى علامة بين كتفيه «شامة» .

---

(١) ذكر السيوطى هذه القصة فى «الدر المنثور» (٢ / ٢٨) ، وعزاها لإسحاق بن بشر وابن عساكر من طرق عن ابن عباس وكعب والحسن ووهب بن منبه يزيد بعضهم على بعض ، فى سياق فيه طول ، وفيه «أن عزيراً ركب حماره بعد أن أحياه له الله ، حتى أتى محلته فأنكره الناس (أى : لم يعرفوه) ، وأنكر الناس ، وأنكر منازله ، فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة ، قد أتى عليها مائة وعشرون سنة ، كانت أمة لهم ، فخرج عنهم عزير ، وهى بنت عشرين سنة وكانت عرفته وعقلته . فقال لها عزير : يا هذه ، أهذه منزل عزير ؟ قالت : نعم ، وبكت وقالت : ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكر عزيراً وقد نسيه الناس . قال : فإنى أنا عزير قالت: سبحان الله ، فإن عزيراً قد فقدناه منذ مائة سنة . فلم نسمع له بذكر . قال : فإنى أنا عزير ، كان الله أماتنى مائة سنة ثم بعثنى . قالت: فإن عزيراً كان رجلاً مستجاب الدعوة ، يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء ، فادع الله أن يرد علىَّ بصرى حتى أراك ، فإن كنت عزيراً عرفتك ، فدعا ربه ومسح يده على عينيها فصحَّتا ، وأخذ بيدها فقال : قومى بإذن الله ، فأطلق الله رِجْلها فقامت صحيحة كأنها نشطت من عقال ، فنظرت فقالت : أشهد أنك عزير ».

فلما كشف العزير كتفه لابنه وجد الشامة .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله:

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) ﴾ [البقرة]

وهذا تأكيدٌ وتعريفٌ بقدرة الحق سبحانه على أنه يبسط الزمن ويقبضه ، وقدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة .

وعزير كان يعلم هذا علم الاستدلال ، وهو الآن يعلم علم المشهد ، علم الضرورة ، فليس مع العين أَيْن ، فصار يعلم حَقَّ اليقين ، بعد أن كان يعلم عِلْمَ اليقين .

والحق سبحانه يعطينا مثالاً آخر عمليًا فى قصة إبراهيم عليه السلام ، فيقول تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ(١) إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا(٢) وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

---

(١) أصل الصَّرِّ : الجمع والشد . وكل شيء جمعته فقد صررته . [لسان العرب ـ مادة : صرر] . قال ابن كثير فى تفسيره (١ / ٣١٥) : «قوله : ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ .. (٢٦٠) ﴾ (البقرة). أى : وقطعهنَّ . قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الأسود الدؤلى ووهب بن منبه ... وقال العوفى عن ابن عباس ﴿ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ [البقرة] . أوثقهن».

(٢) سعى يسعى : مشى سريعًا دون العَدْو . « قال ابن عباس : أخذ رءوسهن بيده ، ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمر الله عز وجل ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته ، وأتينه يمشين سعيًا ليكون أبلغ له فى الرؤية التى سألها ، وجعل كل طائر يجىء ليأخذ رأسه الذى فى يد إبراهيم ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده (انظر : تفسير ابن كثير ١ / ٣١٥) .

وسيدنا إبراهيم عليه السلام لا يشك فى أن الله يُحى الموتى ، ولكنه يريد أن يعرف الطريقة العجيبة التى يُحى بها الله الموتى .

فالكلام ليس فى الحقيقة وجودًا وعدمًا ، ولكن الكلام فى كيفية وجود الحقيقة .

والكلام فى الكيفية لا علاقة له بالوجود ، فهو مؤمن بأن الله يُحى الموتى ، ولكنه يريد أن يعرف كيفية حدوث هذا الأمر العجيب .

فإبراهيم عليه السلام لا يتكلم فى الإحياء ، ولكنه أراد أن يُريه الله ، ويُطلعه على كَيفية الإحياء ، ليزداد اطمئنانًا ، ليتحقق له العلم والمشاهدة لكيفية مخصوصة تُخرِجه من متاهات كيفيات مُصوَّرة ومُتخيّلة .

وما دُمْتَ تريد الكيفية ، وهذه الكيفية لا يمكن أن نشرحها لك بالكلام ، بل لابد أن تكون تجربة عملية واقعة .

فقال سبحانه :

﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

صُرْهُنَّ ، أى : أَمِلْهُنَّ واضْمُمْهُنَّ إليك ؛ لتتأكد من ذوات الطير ، ومن شكل كل طير ، حتى لا تتوهم أنه قد جاء لك طير آخر .

وقال المفسرون [1] :

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (١ / ٣١٥) وعزاه لابن عباس من قوله ، وقال «اختلف المفسرون فى هذه الأربعة ، ما هى ؟ وإن كان لا طائل تحت تعيينها ، إذ لو كان فى ذلك مهم لنصَّ عليه القرآن ».

إن الأربعة من الطير هى : الغراب ، الطاووس ، الديك ، الحمامة .

وهكذا كان كل طائر له شكلية مختلفة .

وقوله :

﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

كان المفروض أن يقول : يأتينك طيرانًا .

فكيف تسعى الطيور ؟

إن الطير يطير فى السماء وفى الجو ، لكن الحقَّ سبحانه أراد بذلك ألا يدعَ أىَّ مجال لاختلاط الأمر ، فقال : (سعيًا) أى : أن الطير سيأتى أمامه سائرًا ، لقد نقل الحق سبحانه الأمر من الطيران الى السَّعْى ، كى يتأكد منها سيدنا إبراهيم .

إذن : فلكى تتأكد يا إبراهيم ، ويزداد اطمئنانك جئت بها من طيور مختلفة ، وأنت الذى قطعتها ، وأنت الذى جعلت على كل جبل جُزْءًا ، ثم أنت الذى دعوتَ الطير فجاءتْ سَعْيًا .

وهذا من عظمة الله تعالى فى أنه لا يفعل فقط ، ولكنه يجعل مَنْ لا يفعل - وهو إبراهيم - يفعل ، فبدلاً من أن يأمر الله الطير بأن تحيا ، يجعلها تستجيب لنداء عبد من عباده ، وهو إبراهيم ، فتحيا فى الحال .

وهنا مَلْحظ فى طلاقة القدرة ، وفى الفرق بين القدرة الواجبة لواجب الوجود ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، والقدرة الممنوحة من واجب الوجود ، وهو الله سبحانه ، لمنكر واجب الوجود وهو الإنسان .

هذا له قدرة ، وذاك له قدرة ، إن قدرة الله هى قـدرة واجبة ، وقدرة الإنسان هى قدرة مُـمكنة ، وقدرة الله لا ينزعـها منه أحد ، وقـدرة الإنسان ينزعـها الله منـه .

فالإنسان من البشر ، والبشر تتفاوت قدراتهم ، فحين تكون لأحدهم قدرة . فهناك آخر لا قُدْرةً له ، أى : عاجز .

ويستطيع القادر من البشر أن يُعدِّى أثر قدرته إلى العاجز ، فقد يحمل القادر كُرْسِيًا ليجلس عليه مَنْ لا يقدر على حمله ، لكن قدرة الحق تختلف .

كأن الحقَّ ـ سبحانه وتعـالى ـ يقول : أنا أُعدِّى من قدرتى إلى مَنْ لا يقدر ، فيقدر .

أنا أقول للضعيف : كُنْ قادرًا ، فيكون .

وهذا ما نفهمه من قوله سبحانه لإبراهيم :

﴿ ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا .... (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

إن إبراهيم كواحد مـن البشر عاجز عن كـيفية الإحيـاء ، ولكن الحق يُعطيه القدرة على أن يُنادى الطير ، فيأتى الطيرُ سَعْيًا .

إن الحق سبحـانه يعطى القدرة لإبراهيم أن يدعو الطيـر فيأتى الطير سَـعْيًا ، وهذا هو الفرق بين القدرة الواجبة ، وبين القدرة الممكنة .

إن قدرة الممكن لا يُعدِّيها أحدٌ لخالٍ منها ، ولكن قدرة واجب الوجود تُعدِّيها إلى مَنْ لا يقدر فيقدر .

ولتوضيح هذا نقول :

إنك قد لا تستطيع حَمْل شيء معين ، فيأتى مَنْ يحمله لك ، وتظل أنت ضعيفًا ، لا تقدر .

أما الحق سبحانه القادر فإنه يُقوِّى الضعيف من عباده ، ويُقْدِر منهم مَنْ يشاء على فعل أشياء خاصة به سبحانه .

وهذا مثْل شأن عيسى بن مريم عليهما السلام ، فقال سبحانه عنه :

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ(١) وَالأَبْرَصَ(٢) وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) ﴾ [آل عمران]

إن خصائص عيسى بن مريم لا تكون إلا بإذن من الله ، فقدرة عيسى عليه السلام أن يصنع من الطين ما هو على هيئة الطير ، وإذا نَفَخ فيه بإذن الله لأصبح طيرًا ، وكذلك إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى .

(١) الأكمه : الذى يُولَد أعمى .

(٢) البرص : مرض جلدىّ يُحدث بقعًا بيضاء فى الجلد تشوهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة .

إن ذلك كله بإذنٍ ممَّن ؟

بإذن من الله .

وكذلك كان الأمر فى تجربة سيدنا إبراهيم ؛ لذلك قال له الحق :

﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

إن الله عـزيز ، أى : لا يغلبـه أحـد ، وهو حكيم أى يضـع كل شىء فى موقعه.

والحق سبحانه يقول :

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) ﴾ [التغابن]

ولذلك يقول الحق سبحانه لهؤلاء الكافرين الكاذبين المكذِّبين بالإحياء بعد الإماتة :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

أى: ماذا كنتم تفهمون مِنْ خلقنا لكم ؟

فالحياة مرسومة لغاية ، والأحياء مخلوقون لغاية مُحدَّدة بمنهج مُحدَّد ، والذى يُحدِّد الغاية هو الخالق سبحانه .

فنحن نعلم أن الصانع هو الذى يُحدِّد الغاية من صنعته ، فكل صنعة لها غاية مُحدَّدة يُحدِّدها الصانع ، ويضع لها قانون الصيانة .

وأنت أيها الإنسان صنعةُ الله ، فَدَعْه ليُحدد الغاية منك ، ودَعْهُ ليحدد منهج صيانتك فى : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

إذن : فساد الدنيا جاء من أن الصنعة تريد أن تأخذ حَقَّ الصانع فى تحديد الغاية ، ووَضْع قانون الصيانة .

فتجد الإنسان يُريد أن يُحدِّد غاية نفسه ، ويضع لنفسه قانون الصيانة . مع أن هذا من حَقِّ الخالق سبحانه ، وليس من حق المخلوق .

فالخالق هو القادر على معرفة ما يُصلِح خَلْقه ، فيضع لهم المنهج الذى يُعينهم على تحقيق الغاية المطلوبة (١) .

فالحقُّ سبحانه لم يخلقنا عبثًا ولا هملاً ، ولا تركنا بدون منهج أو هدف أو غاية .

وأنتَ فى ذاتك تحاول أن تضع جزئية من هذه الغاية ، فأنت تجعل ابنك يتعب فى المذاكرة من عام إلى عام . فيحصل على القبول ، ثم الإعدادية ، حتى إذا وصل إلى الثانوية العامة انقلب حال البيت كله إلى همّ وقلَق وترقُّب .

كل هذا من أجل أن يدخل الجامعة ، ويأخذ الشهادة العالية ، ثم يتولَّى إحدى الوظائف العامة ، وبعد ذلك يتزوج ، ويُكوِّن أسرة وأولادًا ..

وهكذا ..

هذه كلها ليست غاية حقيقية ؛ لأن الغاية الحقيقية هى التى ليس لها بَعد ، أى : ليس لها مُلْحق أو تكملة .

---

(١) يقول تعالى : ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾** ﴾ [الملك] واللطيف : هو المدبر شئون عباده المترفق بهم . والخبير : هو العالم ببواطن الأمور .

فـالإنسان بعـد أن ينجح فى الدنيـا ، ويُحـقِّق النجاح والوظـيفـة المرموقـة ، والأسرة والأولاد .. بعد ذلك يموت ويترك كل هذا .

فهـذه ليست غاية ، ولابد أن هناك غاية أخـرى نهائية ، وهى أن العـبد يَلْقَى الله ويُحاسَبُ على عمله ، فيدخل الجنة أو النار فى خلود دائم .

هذه هى الغاية التى ليست بعدها غاية .

إذن : كل شىء لا بُدَّ أن يُقاس بمقياس الجِـدِّية وعدم العَبَث ، فالله لم يخلق شيـئًا عَبَثًـا ، بل كُلُّ شىء مخلوق لغاية مُـرادة ، وموضوع لها أسـباب توصـل إليهـا .

ومعنى «ترجعون» أى : تعودون إلى الله رَغْمًا عنكم .

ويقول تعالى :

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨) وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا[1] أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ[2] إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً (٥٢) ﴾ [الإسراء]

(١) الرفات : الحطام من كل شىء تكسَّر . رَفَتَ الشىء : كسره ودقَّه .

(٢) نغض : تحرك واضطرب . قال الفـراء : أنغض رأسه إذا حركه إلى فـوق وإلى أسفل . [لسان العرب - مادة : نغض].

ويقول سبحانه أيضًا :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (١) ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ (٢) فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ (٣) إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٤) ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يس]

يقولون : متى تأتى هذه القيامة ؟

ويظلون فى جَدَلٍ فى أمر القيامة والبعث ، تأتى أَمْ لا ، حتى تُفاجئه القيامة ، وعندما تُفاجئه تكون الحَسْرة ، فربما فى اللحظة التى يقول فيها هذا الكلام تأتيه الصيحة ، والمسألة لن تُكلِّفنا إلا صيحة واحدة ، تأخذهم وهم يَخصِّمون .

وإذا كان الإنسان لا يؤمن بالبعث . فهو لا يؤمن بلقاء الله سبحانه ؛ لأن الذى يؤمن بالبعث يؤمن بلقاء الله ، ويُعدّ نفسه لهذا اللقاء بالعبادة والعمل الصالح .

---

(١) خصم الرجل : اشتد فى الخصام أو جادل بشدة فهو خصم . قال تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الزخرف].

(٢) الصور : الذى يُنفخ فيه ، فيُحدث صوتًا عظيمًا . وهو البوق .

(٣) الأجداث : القبور . ومفرده :جَدَث .

(٤) ينسلون : يخرجون بسرعة . قال الليث : النسلان مشية الذئب إذا أسرع . وقد نسل فى العَدْو ينسل : أسرع . [لسان العرب ـ مادة : نسل] .

أما الكـافرون الذين لا يؤمنون بالبـعث ، فَسـيُفاجـأون بالإله الذى أنكروه ، وسوف تكون المفاجأة صعبة عليهم .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .... ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]

والسراب هو أن يمشى الإنسان فى خلاء الصحراء ، ويُخيَّل إليه أن هناك ماءً أمامه ، وكلما مشى ظن أن الماء أمامه ، وما إن يصل إلى المكان يجد أن الماء قد تباعد .

وهذه العملية لها علاقة بقضـية انعكاس الضوء ، فالضوء ينعكس ، ليصور الماء وهو ليس ماء :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .... ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]

إنه يُفاجأ بوجود الله سبحانه الذى لم يكُنْ فى باله ، فهو واحد من الذين لا يَرْجُون لقاء الله .

والخُسْران الحقيقى أن يُكذِّب الإنسان ، لا بنعيم الله فقط ، ولكن بلقاء الله أيضًا .

يقول الحق سبحانه :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ ... ﴿٤٥﴾ ﴾ [يونس]

أى : أن الله سبحانه لم يكُنْ فى بالهم ، وهم حين تقوم الساعة يجدون الله ـ سبحانه وتعالى ـ أمامهم ، فَيُفاجأون بوجوده سبحانه وبالجزاء والحساب ، فَفُوجِئوا بأمر لم يكُنْ فى بالهِم ، ولم يعملوا له أىَّ حساب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝٦ ﴾ [الذاريات]

أى : أن ما تُوعدون من البعث وَعْدٌ صادق ، والحق سبحانه إذا وعد فلابد أن يتحقق وَعده ، وإذا أوعد فلا بُدَّ أن يأتى وعيده .

فهو سبحانه القادر المسيطر على الأشياء ، ولا يُوجد إله آخر يُناقِضه فيما وعد أو أوعد به ، فلا بُدَّ أن يتحقق الوعد ، أو يأتى الوعيد .

وقد يظنُّ بعضُ الناس أن الله قد يأتى بما وعد به ، لكنهم قد يهربون منه ، ولكن ليس الأمر كما يظنُّون ، فالوعد آتٍ وأنتم لا تستطيعون الهرب منه ، ولا أحدَ بقادرٍ على أن يمنع الله عن تحقيق ما وعد أو أوعد .

ولن تَفِرُّوا من وَعْده أو وعيده ، ولن تغلبوا الله ، أو تفوتوه وتُعجِزوه ، فالله غالب على أمره .